Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 40:2 (2005)

بسم الله الرحمن الرحيم

من أعلام الفكر الإسلامي
العز بن عبد السلام: داعية مجدد مجاهد

محمد أمين حسن محمد بني عامر

DMHL

المقدمة:

الحمد لله عالم الخفايا، المطلع على الضمائر والنوايا، الذي أحاط بكل شيء علماً، ووسع كل شيء رحمة وحلماً، والصلاة والسلام على البشير النذير، والهادي الأمين محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اقتدى بهم إلى يوم الدين؛ أما بعد:

فقد قال الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم: "إن مثل العلماء كمثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة"(١). وقال صلى الله عليه وسلم: "إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً وإنمّا ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظّ وافر"(٢).

إن سلف الأمة حملوا أمانة الدعوة الإسلامية وتحمّلوا مسؤولية القيام بها وتأديتها على عواتقهم واشتروا بها أنفسهم وباعوا بها دنياهم، كدّوا وجدُّوا وجهدوا وتحمَّلوا الأغلال والسلاسل والعزل من المناصب؛ بهم فخرنا وقدوتنا، خلّد الله ذكرهم في سجل الخالدين، أولئك قوم ما زال ظلّهم بغروب الشمس ولا غاب نجمهم بظلام الليل، نعم ذهبت الأجساد ولكن آثارهم باقية إلى يومنا هذا خالدة ماثلة بين أيدينا قال تعالى: ﴿ **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوْا وَآثَارَهُمْ** ﴾(٣).

١- رواه أحمد في **المسند**، ٣/ ١٥٧.

٢- رواه ابن ماجة في **المقدمة**، ١٧/ حديث ٢٢٣، ط ١، ٨١، دار الفكر.

٣- سورة يس، الآية: ١٢.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

وصدق من قال: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مرتاحاً ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، والذي يعيش لدينه يعيش كبيراً ويموت كبيراً.

ومن أشهر أولئك الدعاة الذين سطروا التاريخ وتركوا مآثر خالدة في تاريخ الدعوة بالرغم من غلبة الجانب الفقهي على الجانب الدعوي في حياتهم سلطانُ العلماء العزّ بن عبد السلام الذي حمل صدق الدعاة وإخلاص المربّين، وجرأة العلماء العاملين الصادقين، وشجاعة الأبطال المجاهدين.

وقد رأيت أن الذين كتبوا عنه تناولوا الجانب الفقهي فأحببت أن أبرز الجانب الدعوي من حياته في هذا البحث والذي يشتمل على ما يلي:

١- الجوانب الشخصية من حياته.

٢- الجوانب الدعوية من حياته.

والحقيقة التي يجب أن يدركها كل مسلم أن الله تعالى ضمن حفظ دينه ورعايته إلى يوم القيامة، فخلق علماء جهابذة في كل عصر يتبعون سنّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويحيّون ما اندرس منها ويبيّنون للناس معالم الهدى والرشد، ويردّونهم إلى السنّة النبوية بعدما غفلوا وجهلوا قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُوْنَ** ﴾(٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"(٥).

والتجديد يعني: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنّة والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات(٦).

والمجدّد: من كان عالماً بالعلوم الدينية، وكان صاحب همّة وعزيمة، يعمل آناء الليل والنهار من أجل إحياء السنن ونشرها ونصر صاحبها، وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان أو تصنيف الكتب أو التدريس، أو غير ذلك، ومن لا يكون كذلك لا يكون مجدّداً البتة، وإن كان عالماً بالعلوم مشهوراً بين الناس مرجعاً لهم(٧).

٤- سورة الحجر، الآية: ٩.

٥- محمد شمس الحق العظيم آبادي: **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، ٣٨٥/١١، المكتبة السلفية، المدينة المنوّرة، ط ٢، ١٩٦٩م.

٦- المرجع نفسه، ١١/ ٢٩١.

٧- المرجع نفسه، ١١/ ٣٩١.

وبعد دراسة جوانب حياة هذا الداعية سيظهر لنا ما كان يتمتع به من العلوم الدينية وكيف كانت همته وعزيمته وشدته على البدع والمنكرات وهمته في التصنيف والتدريس ونشر دين الله في الأرض، حتى قال السبكي مفتتحاً ترجمته: "القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها لم ير مثل نفسه ولا رأى من رآه مثله، علماً وورعاً وقياماً في الحق وشجاعة"(٨).

وقال الكتبي عنه: "وكان أمَّاراً بالمعروف نهَّاءً عن المنكر لا يخاف في الله لومة لائم"(٩).

وقالت فيه ملوك الفرنجة عندما اعتقله الصالح إسماعيل في بيت المقدس "لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها"(١٠). والفضل ما شهدت به الأعداء.

وقال فيه جمال الدين الحصيري للسلطان الأشرف: "وهذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده لتتم بركته عليه وعلى بلاده ويفتخر به على سائر الملوك"(١١).

وقال فيه صاحب **مفتاح السعادة**: "وكان رحمه الله يتكلم بالحق ويصدع به لا تأخذه في الله لومة لائم، ينادي سلاطين مصر باسمهم في مجالسهم العظام عند تقبيل العلماء أيديهم، بل الأرض بين أيديهم جزاه الله عن العلم والإسلام خيراً(١٢).

اسمه ونسبه ومولده ولقبه:

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن مهذب السُلمي المغربي الأصل، الدمشقي المولد.

وكان يلقّب بسلطان العلماء، ولعل وجه هذه التسمية كونه أحد العلماء الذين قارعوا السلاطين فغلبوهم فكانوا أعظم من السلاطين.

٨- الإمام تاج الدين السبكي: **طبقات الشافعية**، ٥/٨٠، ط ١، عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٧١م.

٩- محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي: ١/ ٩٥، ط، ١٩٥١م، مكتبة النهضة القاهرة.

١٠- السبكي: **طبقات الشافعية**، ٥/ ١٠١.

١١- السبكي: **طبقات الشافعية**، ٥/٩٦.

١٢- طاش كبري زاده: **مفتاح السعادة**، ٢/٢١٣، مطبعة الاستقلال، مصر، ١٩٦٨م.

ولد سنّة سبع أو سنّة ثمان وسبعين وخمسمائة في دمشق، ونشأ وترعرع فيها ثم انتقل بعدها إلى مصر(١٣). وتوفي رحمه الله في يوم الأحد العاشر من جمادى الأولى، سنّة ٦٦٠هـ.

نشأته:

نشأ عز الدين وتربّى في دمشق حتى ترعرع، ولكنه لم تتيسر له أسباب التعلم والدراسة في هذه الفترة من عمره بسبب فقر والده، ولكن فقره الشديد لم يمنعه من الإقبال على العلم وطلب المعرفة، فطلب العلم على كبر، وأقبل عليه فكان مثال العالم الداعية إلى الله بصدق وإخلاص، ومن شدة الفقر كان يتخذ المسجد مسكناً فينام به الليالي، وقد أخذ بنصيحة شيخه ابن عساكر الذي نصحه بتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وتعلّم علوم اللغة والأدب فكان لذلك أثر في براعته وتمكّنه من العلوم، فقد برع الإمام في الفقه والأصول والعربية وفاق الأقران والأحزاب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف أقوال الناس ومآخذهم وبلغ رتبة الاجتهاد(١٤).

علمه وشيوخه:

عرفنا مما سبق أن العز بن عبد السلام لم تتيسر له أسباب التعلم والدراسة في الصغر، ومع ذلك فقد نشأ صالحاً متديّنا، قال السبكي: "كان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيراً جداً ولم يشتغل بالعلم إلا على كِبَرٍ"(١٥).

وقد بدأت حياته العلمية عندما اغتسل ليلة بالجليد من احتلام، فأغمي عليه من شدة البرد وهو في الكلاسة من جامع دمشق (الجانب الشمالي) وعاد فنام فاحتلم ثانياً فعاد إلى بركة الكلاسة فاغتسل ثانية فأغمي عليه من شدة البرد، وقد ذكر صاحب **مرآة الجنان** إن الماء كان جامداً فكسره ثم اغتسل به فسمع منادياً يقول له لأعوّضنّك بها عز الدنيا والآخرة(١٦).

١٣- السبكي: **طبقات الشافعية**، ٢٠٩/٨، وابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ٣٠١/٥، دار إحياء التراث، مصر، وابن كثير: **البداية والنهاية**، ٢٣٥/١٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، وجلال الدين السيوطي: **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، ٣١٤/١، مطبعة حلب.

١٤- ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب**، ٥/ ٣٠.

١٥- السبكي: **طبقات الشافعية**، ٨٢/٥.

١٦- أبو محمد عبد الله بن سعد بن علي بن سليمان اليافعي: **مرآة الجنان وعبر اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ٤/ ١٥٨، ط، بيروت، والسبكي: **طبقات الشافعية**، ٨٢/٥.

وفي بعض الروايات أنه عندما استيقظ سمع نداء يقول: يا ابن عبد السلام: أتريد العلم أم العمل؟ فقال الشيخ عزّ الدين: العلم لأنه يهدي إلى العمل، وعندما أصبح أخذ كتاب التنبيه فحفظه في مدة قصيرة وأقبل على العلم(١٧).

وفي هذه القصة دلالة عظيمة على تديّنه، ونشأته الصالحة التقية إذ لا يكون من هذا شأنه إلا من حباه الله بصدق الإيمان وثبات الجنان، فكان أنموذج الشاب الذي تعلق قلبه بالمساجد إذا خرج منها أحب أن يعود إليها، ومثال الشاب الذي نشأ في طاعة ربّه وعبادته فترك طيش الشباب ولزم أعتاب المساجد، فحقق الله له ما أراد وهذه الحادثة تجعلنا أمام شخصية جادة من أول الأمر، شديدة العزم قوية الأسر، تحمّل نفسها الأشق وتعنّيها في سبيل إرضاء ضميرها الديني الحيّ والقوي.

وقد درس العلم على جلة من علماء زمانه فتفقه على الشيخ فخر الدين ابن عساكر، وقرأ الأصول على الشيخ سيف الدين الآمدي، وسمع الحديث من الحافظ أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم بن عساكر، وعن شيخ الشيوخ عبد اللطيف بن إسماعيل بن أبي سعد البغدادي.

وقد جمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه والأصول والعربية وانتهى إليه معرفة المذهب مع الزهد والورع، وبلغ رتبة الاجتهاد ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد(١٨).

عصره وبيئته التي عاش فيها:

عاش في نهاية القرن السادس وأكثر النصف الأول للقرن السابع (٥٧٧–٦٦٠هـ) فأدرك فترة الدولة الأيوبية التي تلي وفاة صلاح الدين الأيوبي سنّة ٥٨٩هـ، وما فيها من اضطراب كثير واستقرار قليل، لاختلاف أبناء صلاح الدين وأبناء أخيه العادل على الحكم فيما بينهم وتناحرهم المستمر، وبالجملة فإن عصر العز هو عصر فتن داخلية وخارجية تتخللها فترات هدوء واطمئنان قد تقصر وقد تطول.

١– الفتن الداخلية: وتتمثل في الخلاف بين أبناء صلاح الدين ثم أولاد الملك العادل وتقاتلهم على الملك والسلطان وتقاسمهم الحكم على مناطق صغيرة من بلاد الشام، فعلى دمشق واحد وفي حمص وما حولها ثان، وفي حلب ثالث وهكذا.

١٧– السبكي: **طبقات الشافعية**، ٨٢/٥.

١٨– عبد القادر بن محمد الدمشقي النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، ١/ ٣٠٩، طبعة دمشق سنّة ١٣٧٠هـ، وابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب**، ٣٠١/٥، والسيوطي: **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، ٣١٤/١، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط ١، ١٩٦٧م.

وهذا الخلاف والاقتسام أدّيَا إلى تمزيق الحكومة القوية الموحدة التي تركها صلاح الدين، وأذهبَا ريح أبنائه فزالوا من الوجود ليخلو المكان للسلاطين والمماليك الأقوياء.

٢- وأما الفتن الخارجية: فتتمثل في ناحتين: الأولى: اندلاع الحروب الصليبية مرة أخرى بعد موت صلاح الدين في سواحل الشام، ونواحي مصر الشمالية لضعف الخلفاء. والأخرى: هي زحف التتار حيث أزالوا الخلافة الإسلامية من بغداد وعزموا ألا يتركوا العالم الإسلامي إلا خراباً إلى أن كسرهم الله تعالى في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ[١٩].

بيئته:

وأما البيئة التي عاشها عز الدين طوال فترتي حياته في الشام ومصر فهي بيئة تتنازعها اتجاهات شتى في العلم والعقائد والاجتماع لكن طابعها الغالب هو الصلاح والجدّ والاستقامة، وذلك بتأثير السلطان صلاح الدين الأيوبي ذلك الحاكم التقي الذي غير في حياة الناس وحاول أن يطبعهم بطابع الإسلام الصحيح، فكان ما أراد إلا ما كان من انحراف بعض أبنائه أو أبناء العادل ممن حكموا بعده، ولكن الوازع الديني بقي قوياً في المجتمع، وللعلماء الصلحاء من الأمة مكانة محترمة، وكلمة مسموعة عند الشعب والسلاطين على السواء، وهم يؤدّون وظائف التوجيه والإرشاد للأمة بكثير من الحرية إذا صحت العزيمة عند أي واحد منهم وأخلص لله وترفع عن قريب الغايات وعاجل المنافع.

وكان لهذا الجو تأثير قوي في العلوم واتجاه المجتمع، فعلوم السنّة كان عليها إقبال شديد، وللمذهبين العقائديين: الأشعرية وأهل الظاهر من الحنابلة المتعصّبين سلطان على النفوس، والناس يتعصّبون لهذا المذهب أو ذاك، وأصحاب الحكم إما مع أهل المذهب الثاني كما كان من الأشراف فتضييق وبلاء على أهل المذهب الأول، وإما مع الأشعرية كالملك الكامل وابنه نجم الدين فتضييق وبلاء على مذهب أهل الظاهر.

ويمازج هذه البيئة لون من التصوف يكاد يكون عاماً في انتشاره بين شتى طبقات المجتمع، وتظهر في هذا العصر أقوى طريقة صوفية في زمنها وهي الطريقة السهروردية وإمامها الشيخ شهاب الدين السهروردي فاستهوت هذه الطريقة الناس واستمالت الشيخ عز الدين أيضاً، وظهرت أخرى وهي الشاذلية وإمامها الشيخ أبو الحسن الشاذلي.

وقد برزت في هذه البيئة عبقريات استفاد منها الشيخ عز الدين فأثّرت فيه وتأثّر بها وتكوّنت شخصيته المتميّزة في استقلالها، ومن تلك العبقريات الحافظ أبو محمد القاسم بن الحافظ

١٩- رضوان الندوي: **العز بن عبد السلام**، ص ٢٧- ٣٠، دار الفكر، دمشق، ١٣٧٩هـ.

الكبير علي بن عساكر، والحافظ المنذري في الحديث، وفخر الدين بن عساكر والآمدي في الفقه الشافعي والأصول وغيرهم كثير(٢٠).

يقول مصطفى السباعي بعد ذكر البيئة التي عاش فيها الشيخ: "في هذا الوسط المضطرب نشأ العالم العظيم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام فكان وجوده نسمة من نسمات الرجاء تهب على قلوب اليائسين، وعزمة من عزمات الإيمان تنبعث في أوساط المتخاذلين، وومضة من ومضات النور تضيء الطريق للمدلجين في دياجر الظلام، وسوطاً من سياط الحق يلهب ظهور المتكبّرين والمتجبّرين والظالمين"(٢١).

وسائله في تبليغ الدعوة

الدعوة إلى الله شرف عظيم قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِيْ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ** ﴾(٢٢).

وهي مهمة صعبة تحتاج إلى دعاة يتسلحون بأسلحة شتّى تلزمهم في الوقوف في وجه العواصف التي تواجههم.

أولها: الإيمان القوي.

وثانيها: الأخلاق وهي من لوازم الإيمان الحق وثماره.

وثالثها: العلم وهو العدة الفكرية للداعية.

وقد استوفى العزّ بن عبد السلام بهذه الأسلحة، إيمان قوي، وخلق فاضل، وعلم غزير، وقد حفلت سيرته بالوسائل الدعوية الضرورية لتبليغ الدعوة والتي تتمثل بالقول والفعل. وقد استجمع عناصر الخلود وهي العلم والعمل والإخلاص.

أما التبليغ بالقول فيتمثل في الوسائل التالية:

الخطابة:

الخطابة: هي فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته(٢٣). وهي سلاح المجتمع الإنساني في سلمه وحربه، وهي طريق بلاغ الأنبياء إلى أممهم وسبيل الدعاة إلى الهداية والإرشاد، فالخطيب داع إلى دين الله، مرشد إلى الفضيلة والهدى، ناصح باتباع الحق ومحذّر من الوقوع في الرذيلة.

٢٠- المرجع السابق، ص ٣١- ٣٣.

٢١- المرجع السابق، ص ٥-٦.

٢٢- سورة فصلت، الآية: ٢٤.

٢٣- عبد الله شحاته: **الدعوة الإسلامية والإعلام الديني**، ص ١٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وقد ولّ العز بن عبد السلام منصب الخطابة في جامع دمشق[٢٤]. وكان منصب الخطابة في جامع العاصمة منصباً خطيراً آنذاك، ولم يكن يتولاّه إلا ذوو المكانة المرموقة من علماء ذلك العصر، والذي ولاّه ذلك المنصب هو الملك الصالح إسماعيل، ولكنه عُزل بعد فترة إثر خلاف نشأ بينه وبين السلطان المذكور.

وقد قام الشيخ بأعمال جليلة خلال تولّيه هذا المنصب منها: إبطال كثير من البدع التي كانت تُعمَلُ في الجامع الأموي: وقد كان رحمه الله دقيق الملاحظة لا تفوته الصغائر من البدع والتي جرى عليها خطباء الجمع في جامع دمشق.

أ- كدقّ السيف على المنبر.

ب- وليس السواد عند الخطبة.

ج- ومنع صلاة الرغائب[٢٥]، وصلاة نصف شعبان وذلك لأنه لم يثبت لديه دليل بإقامتها.

د- ومنع ذكر السلاطين والحكام بالأوصاف التي هم بُرَآءُ منها وهي بريئة منهم، واقتصر من ذلك على الدعاء لهم بالسداد والتوفيق، وكان رحمه الله جاداً مجداً في إزالة البدع ومحاربة المنكرات، فحين تتاح له فرصة لاتخاذ خطوة إيجابية في إبطالها يبادر إلى التنفيذ، وهو نفسه القائل "فطوبى لمن تولّى شيئاً من أمور المسلمين فأعان على إماتة البدع وإحياء السنن".

وكان أسلوبه رحمه الله تعالى في الخطابة حسناً، قال الشيخ قطب الدين اليونيني: "كان مع شدته فيه حسن محاضرة بالنوادر والأشعار"[٢٦].

٢٤- ابن كثير: **البداية والنهاية**، ١٣/٢٣٥.

٢٥- صلاة الرغائب: جاء في كتاب **مفيد العلوم ومبيد الهموم**، لجمال الدين أبي بكر الخوارزمي: "تُصَلَّى في أول ليلة الجمعة من شهر رجب ما بين المغرب إلى العشاء وعدد ركعاتها اثنتا عشرة ركعة بست تسليمات ويقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وسورة القدر ثلاث مرات، وقل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة، فإذا فرغ من الصلاة يصلي على النبيّ صلى الله عليه وسلم سبعين مرة يقول: اللهم صلى على النبيّ الأمي محمد وآله ثم يسجد ويقول سبعين مرة: سبوح قدوس ربّ الملائكة والروح ثم يرفع رأسه من السجود ويسأل الله حاجته. وسمّيت صلاة الرغائب لأن الملائكة ترغب في هذا التطوال لشرفها.

٢٦- السيوطي: **حسن المحاضرة**، ص ٣١٦.

وذكر ابن العماد أنه "لم يلبس سواداً ولا سجع خطبته، بل كان يقولها مترسلاً[٢٧]. ومما يدل على قوة أسلوبه الخطابي أنه عندما بلغ السلطان بيبرس موته رحمه الله تعالى قال: "لم يستقر ملكي إلا الساعة، لأنه لو أمر الناس فيَّ بما أراد لبادروا على امتثال أمره"[٢٨].

وقد شهد له بذلك أبو شامة حيث يقول: "وفي العشر الأخير من ربيع الآخر سنّة ٦٣٧ تولّى الخطابة بدمشق أحق الناس بالإمامة يومئذ الشيخ الفقيه عز الدين بن عبد السلام مفتي الشام يومئذ"[٢٩].

وقد عيّنه أيضاً نجم الدين أيوب خطيباً في "جامع عمرو بن العاص" رضي الله عنه، وقد ضرب رحمه الله أروع الأمثلة في تحرّيه الحق والصواب في أمور الدين ونفذه دون أن يجاري الجمهور أو يداري الطوائف والجماعات المنحرفة المبتدعة أو يخضع للعادة والمألوف.

الوسيلة الثانية التدريس والإفتاء:

التدريس في الغالب عند الدعاة يكون في فرع من فروع الشريعة الإسلامية وعلومها كالتفسير أو العقيدة أو الفقه أو السيرة النبوية أو الحديث، والهدف من الدرس تعليم الناس ما ينفعهم من أمور دينهم ودنياهم، وعاقبة أمرهم وتوجيههم إلى الخير وإبعادهم عن الشر، وقد يكون التدريس في المساجد أو في المدارس والجامعات أو في غيرها من الأماكن، وقد اتجه الشيخ ابن عبد السلام إلى التدريس في مدرستين المدرسة الغزالية بجامع بني أمية، والمدرسة الشبلية البرانية في دمشق، وتولّى تدريس الفقه الشافعي في المدرسة الصالحية التي ابتدأ بناءها الصالح نجم الدين أيوب، وكانت تدرس المذاهب الأربعة، وكان الناس يرجعون إليه في الفتيا وكذلك كان يعقد حلقات العلم في المساجد.

قال ابن كثير: "وقُصِد بالفتاوى من الآفاق"[٣٠].

وقال السبكي: "قال الشيخ المنذري عن الإفتاء: كنّا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعيّن فيه"[٣١]:

٢٧- المصدر السابق: ٥/ ٣٠٢.

٢٨- المصدر السابق: ٥/ ٣٠٢.

٢٩- شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن أبو شامة: **تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين**، ص ١٧، نشر عزة العطار الحسيني سنة ١٩٤٧م.

٣٠- ابن كثير: **البداية والنهاية**: ١٣/٢٣٥.

٣١- السبكي: **طبقات الشافعية**: ٥/١٨، السيوطي: **حسن المحاضرة**: ١/٣١٥.

وقد نصّ في فتاويه على:

١- عدم جواز الوصف بالألقاب الكاذبة في خطبة الجمعة.

٢- عدم جواز ذكر السجع إلا لضرورة وذكر بأنه لا يسجع إلا بالفواصل الحسان التي يرجى من مثلها التذكير والاتعاظ دون الرياء والسمعة.

٣- عدم جواز ذكر الجائر بالعدل، ولا الجاهل بالعلم ولا يذكر أحد بما ليس فيه فإن المدح بالحق ذبح، فكيف المدح بالباطل؟

ثم قال: "ولا يذكر إلا إذا ألزم به بحيث لا يمكن إقامة الخطبة إلا بذلك" وما أقبح الخطيب أن يدعو الله لمن يلقّب بالألقاب التي يعلم الله أنه بريء منها، ويصفه بأوصاف يعلم الله أنه بعيد عنها وهذا سوء أدب في الدعاء(٣٢).

وقد اتبع أسلوبا مشوقاً جذب أسماع المخاطبين وانتباههم إليه ودفعهم للتفاعل مع درسه بعد استيعابه، مما أدى إلى التفات الناس حوله، وقد ركز على ربط دروسه بواقع الحياة التي يعيشها الناس، ونبّه إلى السلبيات وحذّر منها، وحضّ على هجرها، كما ركز على التصرفات المسلكية من أجل تصحيح المعوجّ وتقويم المنحرف ونوّعها فكان يدرس الفقه والتفسير وغير ذلك من علوم الشريعة.

الوسيلة الثالثة: مناقشة الأمراء وبيان الحق لهم ونصيحتهم:

روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أتى أبواب السلاطين افتتن(٣٣). وورد عن حذيفة بن اليمان: إياكم ومواقف الفتن، فقيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه(٣٤).

ولكن العزّ بن عبد السلام لم يؤثر عليه اتصاله بالسلاطين بل زاده ذلك قوة وإصراراً على قول الحق فكان يحيي عهد الصحابة رضوان الله عليهم في قول الحق ولا يصدَّه عنه جور جائر، ولا تسلّط ظالم، حتى ولو كان هذا الجائر أو الظالم أحد السلاطين الجبارين، ومما يدل على ذلك قصته مع نجم الدين أيوب الذي اتصف بالظلم والجبروت والمؤاخذة على الذنب الصغير والمعاقبة على أتفه الأمور فكان لا يقبل عثرة ولا يقبل معذرة.

٣٢- علي الفقير: **الإمام العز بن عبد السلام:** ١/ ٧٩، نقلاً عن **طبقات الشافعية**، لابن الملقن وهو مخطوط.

٣٣- أخرجه **أبو داود**، حديث ٢٨٥٩، وقال عنه "إسناده صحيح".

٣٤- ابن قدامة المقدسي: **مختصر منهاج القاصدين**، ص ٩٣، مؤسسة علوم القرآن والسنّة، ١٩٧٨م.

ذكر الباجي تلميذ الشيخ ابن عبد السلام أن الشيخ طلع مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أُبوِّئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال هل جرى هذا؟ فقال: نعم. الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلّب في نعمة هذه المملكة. يناديه بأعلى صوته، والعساكر واقفون.

فقال: يا سيدي: هذا أنا ما عملته هذا من زمان أبي.

فقال: أنت من الذين يقولون "إنَّا وجدنا آباءنا على أمة"(٣٥).

فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة.

يقول الباجي فسألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع الخبر: يا سيّدي: كيف الحال، فقال: يا بنيّ رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهيّئه لئلا تتكبر نفسه فتؤذيه. فقلت يا سيدي: أما خفته؟ فقال: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان أمامي كالقط.

إن هذه الحادثة تعطينا صورة واضحة عمَّا يجرّه الملك على أصحابه من الغرور والانحراف عن الحق، والركون إلى الظلم، وقد كان العز بن عبد السلام ينادي السلاطين بأسمائهم وذلك لمكانته عندهم واعترافهم بعلمه.

الوسيلة الرابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

العالم لا يساوي عند الله شيئاً حتى يستوفي صفة عليا وهي مقياس التقويم لشخصية العالم عند الله تعالى هذه الصفة هي "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وهي المهمة التي بعث الله بها النبيّين والمرسلين ولو أهمل أمره لاضمحل الدين وفشا الضلال وعمَّ الفساد وهلك العباد وساء حالهم لهذا ورد وجوبه في الكتاب والسنّة وانعقد عليه إجماع الأمة، وقد يسر الله لهذه الأمة علماء أفذاذاً قاموا بهذا الواجب بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم منهم العز بن عبد السلام الذي قال السبكي مفتتحاً ترجمته "القائم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في زمانه"(٣٦).

٣٥- السبكي: **طبقات الشافعية:** ٨٠/٥، السيوطي: **حسن المحاضرة:** ١/ ٣١٥.

٣٦- المرجعين السابقين.

وقال ابن العماد الحنبلي "..... وهذا مع الزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(٣٧).

وقد صاحب كل ذلك حياة الشيخ في حله وترحاله، وقد وجد في أول تجاربه مع الحكّام والظلمة الكثير من الظلم في نفسه وفي ماله وأهله، وقد منع من التدريس، ومنع من الوظائف، ومنع من الاجتماع بالناس، لقد كان شعاره رحمه الله "إما أن ينزل الإسلام إلى واقع حياتنا في كل صغيرة وكبيرة من شؤوننا وإما هلكنا جميعاً دفاعاً عنه حتى يظهره الله أو نهلك دونه"(٣٨).

ولكن هذا الداعية الذي تحمّل مسؤولية هذا الدين لم يتوقف عن صدّ المنكر حتى لا يتجرّأ الفساق على إظهار الفسوق والفجور بلا مبالاة بل تعدّى ذلك إلى مرحلة إزالته بيده فهو الداعي الذي يعرف واجبه، وهو الطبيب الذي يشخص الداء ويصف الدواء وهو الذي يقوم على معالجة المرضى بنفسه حتى يتم الشفاء فما تناهى إلى مسامعه أن غِلْمَان معين الدين وزير الصالح نجم الدين أيوب قد ابتنوا ـ بأمر من مخدومهم ـ طلبخانة على ظهر مسجد حتى قام وبنُوه بهدمها وإزالة أنقاضها عن ظهر المسجد وأسقط شهادة الوزير فحصّل بذلك قمة الإيمان بإزالته المنكر بيده(٣٩).

مهما ترتب على ذلك من مخاطر وآثار، استجابة لأمر النبيّ عليه الصلاة والسلام "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(٤٠).

ولحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأى الناس المنكر فلم يغيّروه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب(٤١). ولقد كان رحمه الله يقول: والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين ولذلك يجوز للبطل من المسلمين أن ينغمر في صفوف المشركين، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة فمن خشي على نفسه سقط عنه الوجوب وبقي الاستحباب ومن قال بان التغرير بالنفوس لا يجوز فقد بعد عن الحق ونأى عن الصواب، وعلى الجملة فمن آثر الله على نفسه آثره الله، ومن طلب رضا الله بما يسخط الناس رضي الله عنه وأرضى

٣٧- ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب:** ٣٠٢/٥.

٣٨- محمود شلبي: **حياة سلطان العلماء:** ص ١٧٤.

٣٩- السبكي: **طبقات الشافعية:** ٨/ ٢٤٤.

٤٠- رواه مسلم، كتاب الإيمان، ٧٨، **والمسند:** ٣/ ٢٠ و ٤٩.

٤١- رواه ابن ماجة كتاب الفتن ٢٠ حديث ٤٠٠٥، لم يخرجه.

عنه الناس ومن طلب رضا الناس بما يسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس وفي رضا الله كفاية عن رضا كل أحد"(٤٢).

الوسيلة الخامسة الكتابة:

يعرض هذه الأفكار عرضاً منطقياً، ويقيم الأدلة على ما يقدّم من أفكار، وقد أبدع الشيخ عزّ الدين في هذا المجال فنجده ألف عدداً كبيراً من الكتب في مختلف علوم الشريعة مما كان لها أكبر الأثر في العلم.

يقول ابن كثير: "له مصنفات حسان منها التفسير، اختصار النهاية، القواعد الكبرى والصغرى، كتاب الصلاة والفتاوى الموصلية وغير ذلك"(٤٣).

وذكر الزركلي بعض كتبه فقال: "من كتبه: **التفسير الكبير، الإلمام في أدلة الأحكام، قواعد الشريعة، الفوائد، قواعد الأحكام في إصلاح الأنام، ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام، بداية السؤل، الفتاوى، الغاية في اختصار النهاية، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، مسائل الطريقة، الفرق بين الإيمان والإسلام، مقاصد الرعاية**، وغير ذلك"(٤٤).

وفيما يلي ترتيبا لكتب العز بن عبد السلام حسب العلوم التي ألف فيها:

أ- **التفسير وعلوم القرآن.**

١- آمالي في تفسير القرآن.

٢- كشف الإشكالات عن بعض الآيات.

٣- فوائد في تفسير القرآن.

٤- فوائد العز بن عبد السلام.

٥- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز.

٦- مجاز القرآن.

ب- **الحديث وعلومه:**

١- مختصر صحيح مسلم.

٢- رسالة في شرح حديث "لا ضرر ولا ضرار".

٤٢- السبكي: **طبقات الشافعية:** ٥/ ٩١.

٤٣- ابن كثير: **البداية والنهاية:** ١٣/ ٢٣٥.

٤٤- خير الدين الزركلي: **الأعلام:** ٤/ ٢١، ط ٣، بيروت.

ج- **العقائد:**

١- ملحة الاعتقاد.

٢- الفرق بين الإسلام والإيمان.

٣- الإلمام في بيان أدلة الأحكام.

٤- كتاب الأنواع في علم التوحيد.

د- **الفقه والفتاوى:**

١- كتاب الصلاة.

٢- مقاصد الإسلام.

٣- مناسك الحج.

٤- أحكام الجهاد وفضله.

٥- كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار.

٦- الغاية في اختصار النهاية.

٧- الفتاوى الموصلية.

٨- الفتاوى المصرية.

هـ- **أصول الفقه:**

١- قواعد الأحكام في مصالح الأنام.

٢- قواعد الشريعة الكبرى.

٣- القواعد الكبرى.

٤- القواعد الصغرى.

٥- شرح منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والحديث.

٦- فرائد الفوائد وتعارض القولين لمجتهد واحد.

و- **السيرة:**

١- بداية السؤل في تفضيل الرسول.

٢- قصة وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ز- **التصوف:**

١- حل الرموز ومفاتيح الكنوز.

٢- مسائل الطريقة في علم الحقيقة.

٣- رسالة في القطب والأبدال الأربعين.

ح- فضائل الأعمال والعلوم المختلفة:

١- شجرة المعارف وأدلة الأحكام.

٢- نهاية الرغبة في أدب الصحبة.

٣- الفتن والبلايا والمحن والرزايا.

٤- ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام.

٥- مجلس في ذم الحشيشة.

٦- بيان أحوال الناس يوم القيامة.

٧- نخبة العربية في ألفاظ الأجرومية في النحو.

٨- ثلاثة وثلاثون شعراً في مدح الكعبة.

٩- وصية الشيخ عزّ الدين.

١٠- مقاصد الرعاية(٤٥).

ويظهر جلياً أسلوب الشيخ عزّ الدين في الدعوة في كتابه **قواعد الأحكام في مصالح الأنام** تحت فصل بعنوان "فصل في بيان مقاصد هذا الكتاب" فيقول: الغرض بوضع هذا الكتاب بيان مصالح الطاعات والمعاملات، وسائر التصرفات ليسعى العباد في تحصيلهما، وبيان مقاصد المخلفات ليسعى العباد في درئهما وبيان مصالح العبادات ليكون العباد على خير منهما، وبيان ما يقدّم من بعض المصالح على بعض وما يؤخر من بعض المفاسد على بعض، وما يدخل تحت اكتساب العبيد دون ما لا قدرة لهم عليه ولا سبيل لهم إليه، والشريعة كلها مصالح إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح فإذا سمعت الله يقول: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا**﴾ فتأمّل وصيّته بعد ندائه فلا تجد إلا خيراً يحثك عليه أو شرّاً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحثّ والزجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من مفاسد حثّاً على اجتناب المفاسد، وما في بعض الأحكام من المصالح حثّاً على اتباع المصالح(٤٦).

٤٥- السيوطي: **حسن المحاضرة:** ١/٣١٥، رضوان الندوي: **العز بن عبد السلام**، ص ٧٤-٨٣، محمود شلبي: **سلطان العلماء**، ص ١٩، دار الجيل بيروت.

٤٦- العز بن عبد السلام: **قواعد الأحكام:** ١/ ١٠-١١، ط ٢، ١٩٨٠م، دار الجيل، بيروت.

وبعد الاطلاع على هذه الثروة الهائلة التي خلفها العز بن عبد السلام أقول إن الكتاب يعتبر من أهم وسائل نشر الدعوة، لأنه يعرض الأفكار عرضاً منطقيا، ويقيم الأدلة عليها حتى لا يبقى هناك مجال للشك أمام القارئ، كما أن الكتاب يتوخّى صاحبه في تأليفه الأسلوب العلمي الدقيق فيوثّق المعلومات ويخرّج النصوص، ويختار العبارات السهلة ويبتعد عن التعقيد اللفظي والمعنوي. فالكتاب يخاطب العقل والعاطفة معاً فيؤثر في العقل بالإقناع ويؤثر في العاطفة بالتفاعل والاستجابة وينقل القارئ من مرحلة المعرفة إلى مرحلة العمل، والذي يطالع كتب العز بن عبد السلام يأخذ صورة كاملة عن الإسلام ومقاصده التي جاء من أجلها(٤٧).

وقد امتازت أقواله التي يخاطب بها الناس:

أ- بوضوح اللغة التي يتحدث بها لفظاً ومعنى.

ب- استعمال الألفاظ ذات الدلالات القاطعة التي لا تحتمل تأويلاً ولا توقع في اللبس.

ج- الابتعاد عن التكلّف في الكلام والتقعُّر فيه كاستعمال السجع الغريب والتشدّق وكل ما شأنه التفاصح.

د- التنويع في الكلام باستعمال أساليب الخطابة والمحاضرة والدرس والحوار والجدل بحسب ما يقتضيه الحال.

ثانياً: التبليغ بالفعل والقدوة:

الوسيلة الأولى: السيرة الحسنّة والهيئة المهيبة:

السيرة الحسنّة والسمعة الطيّبة والأخلاق الفاضلة والماضي المجيد والتاريخ النظيف والابتعاد عن الشبهات، وكل ذلك من الأمور التي هي مطلوبة وينبغي توفّرها في الداعية، لأن الأصل في الداعية إلى الله أن يبتعد عن ارتكاب أي كبيرة من الكبائر وأن لا يقترف أي فاحشة من الفواحش التي تشوّه السيرة والسلوك.

كما أن الأصل في الداعية أن يلتزم بما يدعو الناس إليه حتى يقتدوا به ولا يجدوا تناقضاً بين ما يدعوهم إليه وبين سلوكه. إن المدعوين إذا رأوا في الداعية الالتزام الكامل بما يدعوهم إليه وَثِقُوا به واتبعوه واقتدوا به، وإذا رأوه بعيداً بأخلاقه وسلوكه عمّا يدعوهم إليه لم يثقوا به ونفروا منه. فصلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان، وخُلُقهُ الفاضل هو السحر الذي يجذب إليه الأفئدة ويجمع عليه القلوب.

٤٧- محمد عبد القادر أبو فارس: **أسس الدعوة ووسائل نشرها**، ص ٨٧، دار الفرقان، ط ١، سنة ١٩٩٢م.

وقد برزت هذه الأمور في سيرة ابن عبد السلام فكان قدوة طيّبة للمقتدين يتمتع بأكمل الصفات، وأعظم الخصال يحب الخير، ويكثر التصدّق على الفقراء، رغم فقره ويعطي الأغنياء على حدّ سواء فلا يخيب ظنّ أحد فيه ولا يردّ سائله وقاصده، حتى إنه ربّما قطع من عمامته وأعطى الفقير الذي سأله إذا لم يجد معه غير عمامته(٤٨).

فقد حكى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة رحمه الله تعالى أن الشيخ لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل فأعطته زوجته مصاغاً لها وقالت: اشتر لنا بستاناً نصيف به، فأخذ ذلك المصاغ وباعه وتصدق بثمنه.

فقالت: يا سيدي اشتريت لنا؟ قال نعم، بستاناً في الجنة إنيّ وجدت الناس في شدّة فتصدقت بثمنه فقالت له: جزاك الله خيراً(٤٩).

ومما يدل على أنه كان مهيب الهيئة أن جماعة من المفسدين قصدوه في ليلة مقمرة وهو في بيت عالٍ في بستان متطرف عن البساتين وأحاطوا بالبيت، فخاف أهله خوفاً شديداً، فعند ذلك نزل إليهم وفتح باب البيت، وقال: أهلاً بضيوفنا وأجلسهم في مقعد حسن، وأخرج لهم ضيافة حسنة فتناولوها، وطلبوا منه الدعاء وعصم الله أهله وجماعته منهم، وفي ذلك دلالة على كرمه وجرأته وأنه لا يخاف شيئاً في الدنيا إلا الله، قال السبكي: وكان مهيباً مقبول الصورة فهابوه(٥٠).

وكان مصدر هيبته وسحر شخصيته إيمانه القوي واعتماده المتين على مصدر القوى، ومآب الهيبة والجلال الله جل وعلا.

الوسيلة الثانية: التبليغ بالأخلاق الفاضلة والتخلي عن الرذائل، والقدوة في كل أمر ونهي:

فقد أدرك العز بن عبد السلام أن سلوك الداعية هو الصورة الحية العملية لدعوته، قدوته في ذلك سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد تمثل هذا الجانب في:

١- التواضع وعدم الكبر.

٢- والجرأة في قول الحق.

٣- والزهد والورع والبعد عن الطمع.

٤٨- السبكي: **طبقات الشافعية:** ٥/ ٨٣.

٤٩- المرجع السابق: ٥/ ٨٢- ٨٣.

٥٠- المرجع السابق: ٥/ ٩٦.

٤- والصبر على المحن والثبات في الشدة.

٥- والجهاد في سبيل الله.

٦- والإخلاص في العمل والبعد عن الرياء.

العز بن عبد السلام: حامل دعوة ومبلغ رسالة ولا يمكن أن يحقق ما يصبو إليه إلا إذا تحلّى بالأخلاق الفاضلة والتي هي قوام المجتمع الفاضل كالصدق والأمانة والثبات والصبر والتواضع والإخلاص، والتخلّى عن الرذائل كالكذب والخيانة والحقد والحسد، والبخل والطمع والرياء في القول والعمل والكبر والعجب، وكان قدوة للناس في كل أمر ونهي فهو شهادة لدعوته، وهذه الشهادة قد تحمل الناس على قبول الدعوة أو رفضها.

١- التواضع وعدم الكبر:

قال عليه الصلاة والسلام: "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً وما تواضع أحد لله إلا ورفعه الله"(٥١).

وقال أبوبكر الصديق رضي الله عنه: "وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع"(٥٢).

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: "أن تخضع للحق وتنقاد له، وتقبله عمَّن قاله"(٥٣).

وقال ابن المبارك: "رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك عليه بدنياك فضل، وأن ترفع نفسك عمَّن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أن ليس له بدنياه عليك فضل"(٥٤).

حقاً الذي يطالع حياة العز يجد أنه كان متواضعاً لله، ومتواضعاً مع الناس وهو الذي قال يا ولدي، أبوك أقل من أن يُقْتَل في سبيل الله(٥٥).

٥١- رواه **مسلم** باب استحباب العفو والتواضع، حديث ٢٥٨٨.

٥٢- الشيخ علي محفوظ: **هداية المرشدين**، ص ٥٠١، دار المعرفة، بيروت.

٥٣- المرجع السابق، ص ١٠٥.

٥٤- المرجع السابق، ص ١٠٥.

٥٥- السبكي: **طبقات الشافعية**، ٨٣/٥.

فقد كان متواضعاً في لباسه حتى إنه لم يكن يتقيّد بلبس العمامة على عادة العلماء الفقهاء بل ربما لبس قمع لباد (طاقية صوفية) وكان يحضر المواكب السلطانية به(٥٦).

ومن مظاهر تواضعه خضوعه للحق وعدم تكبّره وإصراره على الخطأ، فعن القاضي عز الدين البكاري: أن الشيخ عز الدين أفتى مرة بشيء ثم ظهر له أنه خطأ، فنادى في مصر والقاهرة على نفسه: من أفتى له فلان بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ(٥٧).

أقول: إن التواضع خلق رفيع وصفة حميدة، وإن طبيعة الدعوة الإسلامية توجب على الدعاة الاتصال بالناس على مختلف أصنافهم وأجناسهم وطبقاتهم وهم في هذه الأحوال لا بد أن يتصفوا بالتواضع، وأن يعيشوه واقعياً عملياً مقتدين بسيّد الدعاة محمد صلى الله عليه وسلم الذي خاطبه ربه قائلاً: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ**﴾(٥٨). وبالسلف الصالح من هذه الأمة الذين ساروا على نهج محمد صلى الله عليه وسلم إذعاناً للحق، الذي أمر الله به رسوله، حتى يحققوا ثمار الدعوة التي حملوها للناس من بعد نبيّهم عليه الصلاة والسلام.

وكذلك ما أبداه في قصة بيع الأمراء المماليك عندما غادر الشيخ القاهرة حاملاً حوائجه وعائلته على حمير وهو ماش خلفهم على قدميه، هذا هو موكب قاضي القضاة في الدولة المصرية المستقيل من منصبه على السلطان، ولم يكن هذا التواضع يجعله ضعيفاً متخاذلاً أمام الأقوياء، وكان مصدر تواضعه تقواه وبساطته الطبيعية.

٢- جرأته في قول الحق، وصلابته في الدين:

جاء في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه "بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن نقول الحق أينما كنّا لا نخاف في الله لومة لائم"(٥٩).

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم"(٦٠).

٥٦- المصدر السابق: ٨٣/٥.

٥٧- السيوطي: **حسن المحاضرة**: ١/ ٣١٥.

٥٨- سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

٥٩- رواه **ابن ماجة**، كتاب الجهاد، باب البيعة ٤١، حديث ٢٨٦٦.

٦٠- رواه أحمد، **المسند**: ١٩٠/٢، قال الحاكم عنه: صحيح الإسناد، **والفتح الرباني**: ٨٧/١٩، لم يخرجه.

وفي حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: "أوصاني خليلي بخصال من الخير أوصاني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مُرّاً"(٦١).

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يحقرنَّ أحدكم نفسه قالوا يا رسول الله وكيف يحقرنَّ أحدنا نفسه؟ قال: يرى أن لله عليه مقالاً ثم لا يقول فيه فيقول الله عزّ وجل يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا أو كذا؟ فيقول خشية الناس فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى"(٦٢).

فالداعية ينبغي لا يكون هيّابا خوّافا وإنما جريئاً في قول الحق من غير تهوّر، لا يداهن وإنما يداري إذا لزم الأمر .... وقد كان العز بن عبد السلام رحمه الله مثالاً في الجرأة والصلابة في الدين حتى قال السبكي عنه: "لم ير مثل نفسه ولا رأى من رآه مثله علماً وورعاً وقياماً في الحق، وشجاعة وقوة جنان وسلاطة لسان"(٦٣). فهو بهذا يكون قد عمل بقول الله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُوْنَ بِـالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾(٦٤) وبقوله تعالى: ﴿**وَأْمُرْ بِـالْمَعْرُوْفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِـرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُوْرِ**﴾(٦٥)، وعمل بقول رسوله صلى الله عليه وسلم: "والله لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر ولتأخذُنَّ على يد الظالم ولتأطرنَّه على الحق أطراً"(٦٦).

ومِّما يدل على جرأته موقفه من سلطان دمشق الصالح إسماعيل، عندما تحالف مع الصليبيين ضد سلطان مصر نجم الدين أيوب بعد موت صلاح الدين الأيوبي، فأعطاهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان، ووعدهم بجزء من مصر وسمح لهم بدخول دمشق وأعطاهم فيها حرية الحركة وشراء السلاح منها فلما علم الإمام رحمه الله تعالى بذلك وكان إماماً للمسجد الأموى غضب لما صدر عن الملك

٦١- رواه أحمد في **المسند**: ٢/ ١٩٠، وابن ماجة في **سننه** كتاب الجهاد باب البيعة حديث ٢٨٦٦، لم يخرجه ورواه ابن حبان في **صحيحه**.

٦٢- رواه ابن ماجة في **سننه** كتاب الفتن، حديث ٤٠٠٧، قال في **الزوائد**: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

٦٣- السبكي: **طبقات الشافعية**: ٥/ ٨٠.

٦٤- سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

٦٥- سورة لقمان، الآية: ١٧.

٦٦- رواه أبو داود حديث ٤٣٣٦، والترمذي حديث ٣٠٥٠، وابن ماجة في **سننه** حديث ٤٠٠٦، وقال عنه الترمذي: حديث حسن.

الصالح فهاجمه هجوماً عنيفاً في خطبة له فوق المنبر وترك الدعاء له، وأفتى بتحريم بيع السلاح للصليبيين أو التعاون معهم، وكان يقول قبل نزوله عن المنبر "اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد تعزّ فيه وَلِيَّك وتذلّ فيه عدُوَّك ويُعمل فيه بطاعتك ويُنهى به عن معصيتك وعندما علم الملك بذلك غضب غضباً شديداً فقام بعزل العز بن عبد السلام من إمامة المسجد ومنعه من الفتوى واعتقله وحدّد إقامته في بيته إلاّ أن الإمام يتراجع عما قاله في سبيل الله، ولم تؤثر عليه تهديدات الملك بل رأى أن يترك دمشق إلى مصر ليواصل فيها دعوته في سبيل الله فخرج من دمشق سنّة ٦٣٨ هـ وبعد خروجه ثار المسلمون لخروجه فقام السلطان بإرسال وزيره ليلحق به ويعيده فلحقه في نابلس، وعرض عليه أن يعود إلى دمشق بشرط أن يكون مذعناً خاضعاً للسلطان ويعتذر له ويقبِّل يده فرفض عز الدين ذلك وقال له: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبّل يدي فضلاً عن أن أقبِّل يده يا قوم أنتم في واد وأنا في واد والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به(٦٧). فقال الرسول: يا شيخ قد رسم لي أن توافق على ما يطلب منك، وإلا اعتقلتك فقال الشيخ: افعلوا ما بدا لكم فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان، وكان الشيخ يقرأ القرآن في معتقله، والسلطان يسمعه، فقال يوماً لملوك الفرنج تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ فقالوا: نعم. قال: هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبستُه لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق، ومن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم.

فقالت له ملوك الفرنج: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها.

تلك إجابة الفرنج إلى السلطان الخائن التي كانت سهماً في قلبه وإنكاراً متضمّناً لفعله، والفضل ما شهدت به الأعداء(٦٨).

ويدل على جرأته أيضاً موقفه من السلطان الأشرف عندما غضب عليه بتحريض العلماء فعزله من مناصبه وحدد إقامته في بيته ومنعه من الفتوى وبعث إليه وزيره (الغرز) يبلغه هذا الأمر فلم يغضب ولكنه استقبل الأمر بكل بشر وترحاب وقال للوزير يا غرز إنَّ هذا الشرط من نعم الله الجزيلة عليّ الموجبة للشكر.

أما الفتيا فقد كنت متبرّماً بها كارهاً لها، وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم ولولا اعتقادي أن الله أوجبها عليَّ في هذا الزمان لما كنت تلوثت بها ... أما الآن فقد عذرني الحق وسقط عنّي

٦٧- السبكي: **طبقات الشافعية**: ٥/ ١٠١.

٦٨- عبد العزيز البدري: **الإسلام بين العلماء والحكام**، ص ١٩٥-١٩٦، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ١٩٦٦م.

الوجوب، وتخلصت ذمتي ولله الحمد والمنّة. ومن سعادتي لزوم بيتي وتفرغي لعبادة ربّي، والسعيد من لزم بيته وبكى على خطيئته واشتغل بطاعة ربّه وهذه نعمة أجراها الله على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان. والله يا غرز لو كانت عندي هدية تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة على هذه البشارة لخلعتها عليك ولكن خذ هذه السجادة فصَّل عليها فقبلها الوزير وقبلها.

وعاد الوزير إلى السلطان وأخبره بما جرى بينه وبين عز الدين فقال لمن حوله قولوا لي: ماذا أفعل بهذا الشيخ هذا رجل يرى العقوبة نعمة(٦٩).

أقول هذا الموقف ليس غريباً على ابن عبد السلام فلئن خاطب الوزير باسمه مجرداً فإنه كان يفعل ذلك مع السلاطين في بعض الأحيان تلك هي الصورة التي أحيت في النفوس صورة العالم العامل الذي يريده الإسلام ليكون المصحح لمسار السلاطين ولمن تسول له نفسه في الاعتداء على حرمات الله، أو على أمة المسلمين عملاً بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم الذي يرويه أبو سعيد الخذري "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"(٧٠). وقد قال الرافعي فيه انتزع خوف الدنيا من قلبه فغمرته الروح السماوية التي تخيف كل شيء ولا تخاف، وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل في طباع الناس"(٧١).

لقد كان رحمه الله جبل إيمان يصادم السلطان كائناً من كان بمشافهة الإنكار تحت عظام الأخطار، وهذا هو شأن الدعاة المخلصين العاملين لنشر دين الله.

٣- الزهد والورع:

الزهد الحقيقي أن تكون الدنيا في يد الداعية لا في قلبه، فإن كان ذا مال أنفق من ماله بيمينه ما لا تعلم شماله، وإن كان ذا جاه لم يتعال على الناس بل يسخّر سلطانه وجاهه في سبيل الله يخدم الأمة ويحكمها بشرع الله، ولا يقيم وزناً لأعداء الله.

وإن كان ذا علم تواضع ولم يطلب مالاً، إذاً الزاهد الحقيقي هو الذي ينفق ماله وعلمه وجاهه في سبيل الله، وعندما نستعرض حياة العز بن عبد السلام فإننا نجد أن سِجِلّ حياته مَلِيْءٌ بالوقائع التي تثبت زهد هذا الداعية وورعه.

٦٩- السبكي: **طبقات الشافعية:** ٨/ ٢١٨ وما بعدها.

٧٠- رواه أبو داود حديث ٤٣٤٤ والترمذي حديث ٢١٧٥ وقال عنه الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

٧١- محمد حسن عبد الله: **عز الدين بن عبد السلام**، ص ٦٤، مكتبة وهبة، مصر.

فقصة مساغ زوجته عندما طلبت منه أن يشتري لها بستاناً فتصدق به لما رأى حاجة الناس دليل على حقيقة الزهد.

ورفضه الخضوع للسلطان الأشرف فيما سبق ذكره دليل على ورعه وخوفه من الله وإعراضه عن الدنيا وقد شهد له ابن العماد الحنبلي فقال ... هذا مع الزهد والورع"(٧٢). ومع الزهد فقد كان رحمه الله يعرف نفسه ويضعها في موضعها فلا اتضاع ولا خمول ثم لا عجب ولا خيلاء، وقد قال في الرسالة الأخيرة التي كتبها للملك الأشرف في محنته "والله أعلم بمن يعرف دينه، ويقف عند حدوده، وبعد ذلك فإنا نزعم أنَّا من حملة حزب الله وأنصار دينه وجنده"(٧٣).

ومما يدل أيضاً على ورعه أن الملك الظاهر بيبرس أرسل إليه لما مرض وقال له عيّن مناصبك لمن تريد من أولادك فقال الشيخ ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصلاحية للقاضي تاج الدين(٧٤). وليس معنى ذلك أنه لم يكن في أبنائه من يصلح للتدريس فابنه الشيخ عبد اللطيف كان عالماً فقيهاً، وإنما لم يسمح ورع عز الدين أن يجعل منصب التدريس وراثة لأولاده.

٤- الصبر على المحن والثبات على المبدأ:

الصبر زاد الدعاة فهم الذين يصدعون بالحق، ويدعون إلى الخير ويقومون اعوجاج الظالمين، وينيرون الطريق للعاصين، ويتصدّون لأهل الباطل المنحرفين فإذا كان هذا هو واجبهم فلا بد من الصبر لأنه طريق النصر.

قال تعالى: ﴿**وَمَا لَنَآ أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَآ آذَيْتُمُوْنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُوْنَ وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِيْ مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِيْنَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِيْ وَخَافَ وَعِيْدِ**﴾(٧٥).

والذي يدرس حياة هذا الداعية يجد انَّها طافحة بدروس الصبر وإليك بعضها والذي يدل على صبره على المحن التي نزلت به وثباته، فعندما أفتى الإمام ببيع الأمراء المماليك، تعرض للقتل بسبب أمره ببيعهم ووضع ثمنهم في بيت مال المسلمين، وقد كانوا طبقة قوية تسيطر على المناصب

٧٢- السبكي: **طبقات الشافعية:** ٥/ ٣٠٢.

٧٣- الكتبي: **فوات الوفيات:** ١/ ٥٩٥.

٧٤- السبكي: **طبقات الشافعية:** ٥/ ٩٦.

٧٥- سورة إبراهيم، الآية: ١٢- ١٤.

العالية وعلى الحكم في مصر، فكانت هذه الفتوى منه بعد أن كثرت مظالمهم وزاد طغيانهم وجنح الشعب بالشكوى منهم.

ولقد كانت هذه الفتوى تمثل ضربة قاصمة أصابتهم في الصميم فحطمت كبرياءهم وأذلتهم حيث بيّنت أن المماليك عبيد أرقاء وأنه لا يصح لهم تولّي مناصب الدولة ولا يصّح لهم بيع ولا شراء، فتعطّلت مصالحهم واضطربت شؤونهم وضاقت بهم الحياة، وهم الطبقة الحاكمة في مصر، بعد أن أوضح الإمام عز الدين فتواه بأن يباع المماليك على ملأ من الناس، ثم يودع ثمنهم في بيت المال ثم يتم إعتاقهم بطريق شرعي.

وبعد هذه الفتوى أصبح المماليك سخرية للناس فاشتدّ غضبهم، واشتكوا ذلك إلى السلطان ليتوقف الشيخ عن الخوض في هذا الأمر.

وقد تعرّض الشيخ نتيجة لذلك للّوم والعنف من السلطان على تصرّفه هذا مع رجال الدولة، فغضب الشيخ وترك البلاد بعد أن استقال من منصب قاضي القضاة فخرج الشعب وراءه، فخاف السلطان من الثورة فأرسل وزيره وراء الشيخ حتى يسترضيه ويعيده إلى البلاد إلا أنه رفض العودة إلا بعد أن وافق السلطان على بيع الأمراء المماليك في مزاد علني.

بعد هذا الموقف حصل الرفض والغضب من قبل الأمراء المماليك وأرادوا قتل الشيخ عز الدين حتى يتخلّصوا من هذه الفتوى التي أصدرها بحقهم وبحق نائب السلطنة وهو منهم فقال!

كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنَّه بسيفي هذا، فركب بنفسه في جماعته وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده فطرق الباب فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال فما اكترث لذلك ولا تغيّر وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يُقتَل في سبيل الله، ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له وقال يا سيدي خير أي شيء تعمل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم. قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين؟ قال: من يقبضه؟ قال: أنا فتم له ما أراد ونادى على الأمراء واحداً وغالى في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير، وهذا لم يسمع بمثله أحد رحمه الله ورضي عنه.

نعم لم يسمع بمثله أحد، ولم يقع شبيه له بعد، فلله رجال وللإسلام أنصار، وللمسلمين قادة هم العلماء، وللقضاة قضاة يقيمون الحق ويحافظون على حدود الله ويقضون بالقسطاس المستقيم لا يرهبون حاكماً ظالماً، ولا سلطاناً جائراً(٧٦).

وصدق الله إذ يقول: ﴿ **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُوْمُ الْأَشْهَادُ** ﴾ (٧٧).

من هذا يظهر لنا أن العز بن عبد السلام كان صاحب عزيمة في أمور الدين، يختار دائماً المستوى الأعلى منها ولا يلجأ إلى الرخص ولا يتأول، ولقد كان رائده في كل ما قام به من مقارعة الأهوال ومبارزة السلاطين بالحجة والبرهان وردهم عن غيّهم قوله "من آثر الله على نفسه آثره الله، ومن طلب رضا الناس بما يسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس، وفي رضا الله كفاية عن رضا أحد"(٧٨).

فقد أرضى سلطان العلماء الله ولم يلتفت إلى سخط الناس، فأحبّه الله ورضي عنه، وأرضى عنه الناس حتى تعلق به العامة والخاصة، وأثنى عليه القاصي والداني وذلك آية إخلاصه العمل لله، وأنه لا يسعى إلى حظ من حظوظ الدنيا حيث قضى معظم حياته وهو على جانب من الفقر، وصدق الله إذ يقول: ﴿ **وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُوْلَهُ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُوْنَ** ﴾ (٧٩).

٥- الجهاد في سبيل الله:

إذا نجح الداعية في ميدان جهاد النفس وجهاد الشيطان نجح في ميدان قتال الكافرين لتوفر الإرادة الإيمانية القوية والعزيمة الصلبة، والانضباط والصبر على الشهوات.

والداعية ينبغي أن يكون قدوة في مواطن الجهاد لا يخشى أحداً ولا يخاف إلا الله يقتحم الثغور ويصاول الأعداء قدوته نبيّ الهدى الذي كان يلوذ به الناس عندما يحتدم الوغى ويشتد البأس، والذي يطالع حياة العز بن عبد السلام وجهاده للسلاطين، والطغاة الظالمين الكافرين يدرك ما كان يتمتع به هذا الداعية من شجاعة وقوة بأس على أعداء الله، فهو بطل الموقف يوم تعرضت البلاد

٧٦- عبد العزيز البدري: **الإسلام بين العلماء والحكام**، ص ١٩٦- ١٩٨.

٧٧- سورة غافر، الآية: ٥١.

٧٨- السبكي: **طبقات الشافعية: ٥/٩١**.

٧٩- سورة المائدة، الآية: ٥٦.

الإسلامية لغزو والتتار وسقطت بغداد وجبن أهل مصر عنهم وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض استشاروا الشيخ ابن عبد السلام فقال لهم: اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر.

فقال له السلطان: إنَّ المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار فقال له الشيخ رحمه الله تعالى: إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام وضربته سكة ونقداً، وفرقته في الجيش، ولم يقم بكفايتهم ذلك الوقت اطلب القرض وأما قبل ذلك فلا، فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة بحيث لا يستطيعون مخالفته فامتثلوا أمره فانتصروا(٨٠).

وأما موقفه عندما قدم الإفرنج على دمياط وكانوا من قبل وصلوا إلى المنصورة في المراكب واستظهروا على المسلمين، وكان الشيخ مع العسكر كالأسد الهصور يحرض على القتال ويقاتل، وقويت الريح فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح يا ريح خذيهم: عدة مرات فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها وكان الفتح وغرق أكثر الفرنج وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ الحمد لله الذي أرانا في أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً سخّر له الريح(٨١).

إنه دعاء القلب الصادق الخاشع، لمن بيده ملكوت السماوات والأرض وكم أبرّ يميناً أقسم بها عليه أشعث أغبر.

٦- الإخلاص في العمل:

الإخلاص روح الدين ولباب العبادة وأساس أي داع إلى الله، والإخلاص لله من أبرز معالم النجاح في طريق الدعاة إلى الله، وهو منّة إلهية يمنُّ الله به على من يشاء من عباده فيرزقهم حسن القول والعمل ويوفقهم إلى طاعته ورضاه وأخطر شيء على الدعاة انعدام الإخلاص فإن ذلك مرض عضال يؤدي إلى فشل الدعاة وابتعاد الناس عنهم، والإسلام مبني على الإخلاص ﴿**أَلاَ لِلَّهِ الدِّيْنُ الْخَالِصُ**﴾(٨٢).

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال: "إنمّا الأعمال بالنيات وإنمّا لكل امرئ ما نوى ...".

٨٠- السبكي: **طبقات الشافعية:** ٨/٢١٤.

٨١- المصدر السابق: ٨/ ٢١٦- ٢١٧، السيوطي: **حسن المحاضرة:** ٢/ ٣٤.

٨٢- سورة الزمر، الآية: ٣.

وقد توّج الإخلاص حياة العز بن عبد السلام في كل شيء في قوله وعمله وفكره وجهاده وحياته كلها، وحسبك قوله: "من آثر الله على نفسه آثره الله" ومن طلب رضا الله بما يسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن طلب رضا الناس بما يسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس، وفي رضا الله كفاية عن رضا أحد"(٨٣).

وآية الإخلاص عنده تجلّت في عمله لله، وإعراضه عن الدنيا حيث قضى معظم حياته وهو على جانب كبير من الفقر صغرت الدنيا في عينيه، وكان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يحل، ولا يكنز إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يمد يداً إلا على ثقة لمنفعة، وكان رحمه الله لا يقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يقول(٨٤). وكان يتمثل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أصبحت الدنيا همه وسدمه (لهجته) نزع الله الغنى من قلبه وصيَّر الفقر بين عينيه ولم يأته إلا ما كتب له ومن أصبحت الآخرة همه وسدمه نزع الله الفقر من قلبه وصيَّر الغنى بين عينيه وأتته الدنيا وهي راغمة(٨٥). وبعد هذا أقول إن من آكد الوظائف والأدب في حق العالم أن يكلم الناس بفعله قبل قوله وأن لا يأمرهم بشيء من الخير إلا ويكون من أحرصهم على فعله والعلم به، ولا ينهاهم عن شيء من الشر إلا ويكون من أبعدهم عنه وأشدهم تركاً له وأن يكون مريداً بعلمه وعمله وتعليمه وجه الله والدار الآخرة فقط، دون شيء أخر من جاه أو مال أو ولاية أو شيء من أعراض الدنيا قال صلى الله عليه وسلم: "من طلب العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار"(٨٦).

الأصول التي بنى عليها دعوته وفكرته:

١- ترتبط دعوة العزّ بكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ويظهر ارتباطها بالكتاب والسنّة في أقواله وأفعاله ومؤلفاته ومما يدل على صدق ارتباط دعوته بالقرآن والسنّة.

أ- نشأته الإسلامية، ودراسته لعلوم الشريعة المختلفة على يد علماء أفاضل وملازمته للمسجد أول حياته.

ب- الردّ على الفئات المنحرفة وبيان أضاليلها والردّ عليها بالحجة والبرهان والعمل على قمع البدع والضلال.

٨٣- السبكي: **طبقات الشافعية:** ٥/ ٩١.

٨٤- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: ٢/ ٢٥٥، دار الكتاب مصر، ١٩٦٣م.

٨٥- **سنن الدارمي في المقدمة**، ص ٢٣.

٨٦- رواه ابن ماجة حديث ٢٥٣ و ٢٥٩ و ٢٦٠ وقال عنه في **الزوائد**: إسناده ضعيف.

٢- نظرتها الشمولية للإسلام وعالميته.

لقد فهم العز الإسلام فهماً شاملاً على أنه نظام حياة يتعهد الفرد من مولده حتى وفاته، ويضع له كل النظم التي تجعله يسير في الطريق السوي الموصل إلى رضا الله وجنته، ولم يترك الإسلام ناحية من نواحي الحياة إلا وله فيها رأي، وها هي كتب العز توحي بذلك.

كما أن الإسلام دين عالمي للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان أساس التفاضل فيه التقوى.

ركائز الفقه الدعوي عنده:

بعد إلقاء الضوء على الأحداث التي مرَّ بها الشيخ ابن عبد السلام كداعية مع الملوك والحكام فإن هذه الأحداث أظهرت لنا بعض جوانب منهجه الدعوي وقد ارتكز هذا المنهج على ما يلي:

أولاً: إشعال الجذوة الإيمانية بالنفوس البشرية وبيان ربانية هذه الدعوة وإيجابيتها وعملها للحياة فهي تجعل من الدنيا مزرعة للآخرة، وتعميق الإيمان بالله رباً وخالقاً وإلهاً معبوداً.

ثانياً: توثيق صلة الناس بالقرآن الكريم دستور للإسلام وينبوع العقيدة وأساس الشريعة وكذلك السنّة النبوية.

ثالثاً: قول الحق دون أن يفكر في عواقب ذلك علماً منه بأن الخوف كل الخوف من رب الأرباب وليس من ذلك الحاكم الذي قد يطيش سهمه فيوقع الأذى بعباد الله يقول صاحب **مفتاح السعادة**: "وكان رحمه الله يتكلم بالحق ويصدع به ولا تأخذه في الله لومة لائم، وينادي سلاطين مصر بأسمائهم في مجالسهم العظام عند تقبيل العلماء أيديهم بل الأرض بين أيديهم"(٨٧).

رابعاً: اتباع منهج السلف الصالح والذي كان ينبع من الكتاب والسنّة النبوية، وما عرف عنهم من صفاء العقيدة وصفاء الفكر ومحاربة البدع، والقدوة الحسنّة في أقوالهم وأفعالهم وحلهم وترحالهم، والذي يمعن النظر في نهجه الدعوي يجد أنه كان يحاول استرجاع ماضي الإسلام التليد، ويحاول إحياء السنن وإماتة البدع، وكان يحمل هموم الأمة، وآلام المسلمين ومخافة الله فكان لا يرضى أن يعصى الله في ديار الإسلام تحت سمع الحاكم وسكوت العلماء.

٨٧- طاش كبري زاده أحمد بن مصطفى: **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**: ٢/ ٣٥٢، مطبعة الاستقلال، مصر، ١٩٦٨م.

خامساً: ابتعاده عن الدنيا فما عرف عنه أن طلب حظاً لنفسه من حظوظ الدنيا، بل إنّه رفض الدنيا وقد أتته طائعة وقد وصفه اليافعي في **مرآة الجنان** "بأنه كان جبل إيمان لا يخشى سلطاناً ولا يهاب سطوة الملك بل يعمل بما أمر الله ورسوله وما يقتضيه الشرع".

سادساً: إحياء روح الجهاد في سبيل الله تعالى وتعبئة قوى الأمة النفسية للدفاع عن ذاتيتها ووجودها، وإيقاد شعلة الحماسة في صدور الأمة التي حاول أعداء الإسلام إخمادها، ومقاومة روح الوهن النفسي الذي هو حبّ الدنيا وكراهية الموت، وبهذا النهج استطاع الشيخ أن يحفظ نفسه ضد سطوة الملوك، وأن يحفظ للأمة ما بقي من دينها، وأن يسترجع منها ما نسي فكانت له شعبية بين الناس ساعدته على المضي قدماً أكثر وأكثر.

مقومات العمل الدعوى عنده:

العمل الدعوي يحتاج إلى جد واجتهاد، كما يحتاج إلى تفرغ وانقطاع فالجد في نشر الدعوة وإبلاغها وتذليل الصعاب والعقبات التي في طريقها، والاجتهاد في التعرف بالدعوة وعرضها على الناس وتيسير طريق الوصول إلى فهمها ومعرفتها لتحقيق نجاحها، والصدق في القول يكسب الإنسان قوة في العمل، ومن صدق مع الله سخر العباد لطاعته. ونلحظ من حياة العز أن عمله الدعوي قام على:

١- تسخير جميع طاقاته العلمية والبدنية والمالية في سبيل الدعوة إلى إقامة شرع الله وإحياء العقيدة الصحيحة، وكان همّه الأكبر إرضاء الله.

٢- المداومة والاستمرارية على العمل الدعوي، وتحمل المشاق من فقر وضيق وحبس ونفي في سبيل تحقيق هدفه السامي.

٣- الإيمان القوي والصبر على الشدائد الذي دفعه إلى تجاوز المحن التي حلت به، وأعظم بالإيمان من قوة لا تعرف الوهن، وبالصبر من قوة تطرد اليأس وتدفع الملل.

٤- القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل حال وهو قطب الدين الأعظم.

٥- إزالة المنكر باليد إذا استدعت الضرورة دون نظر للنتائج المترتبة على ذلك فهو الطبيب الذي يشخص الداء ويصف الدواء.

٦- البعد عن التكلف والميل إلى البساطة وتجنّب السجع والتمطيط.

٧- الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين الله ونشر دعوته إذا عجز عن تبليغها في بلد ارتحل إلى بلد آخر، فالداعية رحالة وطنه المكان الذي يبلغ به دعوته.

خصائص دعوته ومميزاتها:

أ- الشمول: فقد ركز العز على جوانب الحياة المختلفة ويظهر ذلك في مؤلفاته التي شملت جوانب الحياة الاجتماعية، والسياسية والأخلاقية، والعقدية، والفقهية، وفضائل الأعمال.

ب- الوضوح في التعبير والبعد عن الغموض والتعقيد.

ج- الاختصار: بالقدرة على تطويع اللغة وامتلاكها لشرح جميع الأمور التي يريد أن يتحدث بها.

د- الواقعية: التركيز على الأحداث المعاصرة لمشاركة الناس في همومهم، والتعاطف مع مشاكلهم فالردّ على التتار، ومقاومة البدع وكسر أهلها باللسان أو بالكتاب والتدريس، ومحاربة المنكر.

أهم المجالات الرئيسية للدعوة عنده:

١- تحريك العنصر الإيماني في نفوس الأمة المسلمة والتي أصابها الوهن بعد تفرقها وتشرذمها وطمع الأعداء بها، وإثارة الشعور الديني فيها فالأمة مادة الإسلام ورأس ماله وهي الخامات الكريمة التي تستخدم لأي غاية نبيلة بتصحيح العقيدة وإخلاصها لله ونقائها من الشرك والعادات والتقاليد غير الإسلامية.

٢- العمل على صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف والتغيير والتبديل.

٣- تقوية الصلة الروحية والعقلية والعاطفية بنبيّ الإسلامي محمد عليه الصلاة والسلام والحب العميق له وتقديمه على النفس والأهل والعشيرة والمال.

٤- إعادة الثقة في نفوس المسلمين بصلاحية الإسلام وقدرته على قيادة البشرية إلى الغاية العليا ودفع سفينة الحياة إلى برّ السلام والسعادة وإنقاذ المجتمع من الانهيار.

٥- إيجاد حركة إيمانية دعوية إيجابية في البلاد الإسلامية والتي تعرّضت لغزو الإفرنج وظلم المستبدّين من أبنائها.

مظاهر العظمة في حياة هذا الداعية:

رأينا فيما سبق العزّ بن عبد السلام في حياته العلمية والعملية، رأيناه في حلقات التدريس ومنابر الخطابة وقاعات المحاكم وهو يلقي الدروس على تلاميذه ويخطب أمام الجمهور أيام الجمع ويقضي بين الناس ويحكم؛ وكذلك رأيناه وهو يفتي ويؤلّف ثم رأينا العز الصوفي وهو يغشى حلقات الصوفية ويصاحبهم وهو بنشاطه هذا وذاك يترك آثاراً في النفوس قوية هنا وهناك.

لقد ظهرت عظمة هذا الداعية في المجالات التالية:

أولاً: جرأته في قول الحق وشدته على المبطلين وإخلاصه النصح لله ولرسوله إخلاصاً أورده المهالك، ولكنه كان في نفسه أعظم من أن يستحضر الخوف من المهالك. لقد كان شعاره رحمه الله تعالى: "إما أن ينزل الإسلام على واقع حياتنا في كل صغيرة وكبيرة من شؤوننا وإمّا هلكنا جميعاً دفاعاً عنه حتى يظهره الله أو نهلك دونه" فسرّ العظمة هنا أنه تحدّى أباطرة الملوك، ودهاة السلاطين ووقف في وجوههم وهم على عروشهم وسيوفهم مشهرة بكلمة الحق لا يبالي أغضبتهم قولة الحق أم أفزعتهم أم دفعتهم إلى قتله، هذه الصفة العلياء، وهي صفة الجهر بالحق والاستعداد لأقصى التضحيات في سبيل إظهاره، لقد كان يصور نفسه على حقيقتها قوله لابنه وقد هدده كبير الأمراء بالقتل لأنه أصدر العزم على بيعهم علنا أمام الجمهور: يا بنيّ إنَّ أباك أحقر من أن يقتل في سبيل الله.

ثانياً: جهاده في سبيل الله وتحريضه الناس على قتال التتار وخوضه المعارك على كبر سنّه وحاجة الناس إليه، وكذلك قتاله للصليبيين في معركة المنصورة.

ثالثاً: علمه الوافر فقد كان على جانب كبير من الاطلاع على أسرار الشريعة وإحاطته بمقاصدها، بل بمقصدها الأعظم وهو رعاية مصالح العباد لقد وصل إلى لبّ الشريعة حين آمن بهذه الحقيقة فإذا بأحكام الشريعة تبدو له حبّات في عقد منتظم منسجم وإذا هو يستذكرها في كتابه العظيم **قواعد الأحكام** استذكار العالم الفقيه الذي يستمد علمه من لدن حكيم عليم(٨٨).

رابعاً: قوة إيمانه بالله فهو الشحنة المفجرة للطاقات الكامنة عنده مصدر جرأته وشجاعته وقوة إرادته بقوة الله يتقوى، وبتثبيته إياه يثبت، فهو القائل "من آثر الله على نفسه آثره الله".

خامساً: السلاح الخلقي الذي تمتع به والذي يتمثّل بتواضعه مع الله ومع الناس وجرأته في قول الحق، وصلابته في الدين، وصدقه وإخلاصه مع الله والعباد واعتماده على الله، وخضوعه للحق، وزهده وورعه، وقوة عزيمته في أمور الدين، مما أدى إلى زرع محبّته في قلوب الناس فالتفّوا حوله وأحاطوا به كما يحيط السوار بالمعصم.

٨٨- رضوان الندوي: مقدمة كتاب **العز بن عبد السلام**، ص ٦-٧.

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين في الختام أقول فقد جاء في الحديث الذي أورده الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يزال الله عزّ وجل يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته"(٨٩).

إن جمال العلم بالعمل، فأوضع العلم ما وفق في اللسان وأرفعه ما ظهر في الجوارح والأركان، وبعد الاطلاع على حياة العزّ بن عبد السلام وما تحلّى به من ذكر جميل أقول ما شاع الذكر الجميل للعزّ جزافاً ولا ترددت الأقلام إلى شخصه إلاّ لمعنى عجيب في جهده وطاقته نال به ثناءً ملأ الآفاق وجمالاً زين الوجود وعزاً نسخ كل ذلّ، هذا في العاجل، وثواب الآجل لا يوصف.

فهو العامل الذي اتصف بجيمع ما يحثّه عليه العلم، ويأمره به من الأخلاق المحمودة والأعمال الصالحة، والمجانب لكل ما ينهاه العلم عنه من الأخلاق والأعمال المذمومة، وفيما يلي ذكر علامات الداعية العامل والتي استشفها من حياة هذا الداعية.

١- التواضع والخوف والوجل والإشفاق من خشية الله.

٢- الزهد في الدنيا والقناعة باليسير منها، والإنفاق في سبيل الله لكل ما زاد عن حاجته.

٣- النصح للعباد والشفقة عليهم والرحمة بهم والبعد عن الغلظة والجفاء.

٤- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في عمل الخيرات والملازمة لفعل الطاعات.

٥- حسن الخلق وسعة الصدر، ولين الجانب، وخفض الجناح للمؤمنين والبعد عن التكبر والتجبر عليهم.

٦- البعد عن الطمع، والحرص على الابتعاد عن مغريات الدنيا، وتقديم الآخرة والعمل لها.

٧- البعد عن المداهنة والخداع والغش، والصدع بالحق لا تأخذه به لومة لائم.

قال عليه الصلاة والسلام: "لا تزول قَدَمَا عبْدٍ حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبهُ وفيم أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه"(٩٠).

وقال بعض السلف: "أشد الناس ندامة عند الموت عالم مفرّط"(٩١).

٨٩- رواه ابن ماجة **المقدمة**، حديث ٨.

٩٠- رواه الترمذي **في السنن** كتاب القيامة، حديث ٢٥٣٢، **التحفة:** ١٠١/٧.

٩١- ابن قدامة المقدسي: **مختصر منهاج القاصدين**، ص ٢٤، علوم القرآن، بيروت، ط/ ١٩٧٨م.

وأختم كلامي بالقول: إن العز كان من الدعاة العاملين الجريئين في قول الحق المحبّين للخير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، المحاسبين للحكام الناصحين لهم، والساهرين على مصالح المسلمين، المهتمين بأمور الأمة المحتملين كل أذى ومشقة في هذا السبيل، لقد كان رحمه الله سائراً على طريق أنبياء والمرسلين فكانت أعماله ترجماناً لتعليم القرآن والسنّة يقول للظالم ظلمتَ وللمُفسِد أفسدتَ، وللعاصي عصيتَ، أصلح ما فسَد وقوَّم ما اعوجَّ، لم يخش أحداً من الناس، ولم يَهَبْ سلطاناً جائراً، ولا حاكماً جبَّاراً ولا جبّار إلا الله تعالى، آمن بقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام ظالم فأمره ونهاه فقتله" رواه الحاكم بسند صحيح.

ملخص البحث:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فمن حديثي عن العز بن عبد السلام أخلص إلى الأمور التالية:

١- إن سلف الأمة حملوا الدعوة على مناكبهم، واشتروها وباعوا بها الدنيا، وتحملوا الأغلال والعذاب في سبيلها فهم ورثة الأنبياء حقاً.

٢- أن العز بن عبد السلام من القوم الذين خلَّد الله ذكرهم في سجل عمالقة التاريخ فهو وإن أفل نجمه بظلام الليل لكن آثاره ما زالت خالدة حتى اليوم.

٣- أن العز بن عبد السلام قد سطر صفحات خالدة في تاريخ الدعوة الإسلامية بالرغم من غلبة الجانب الفقهي على الجانب الدعوي في حياته.

٤- أن العزّ أحد الدعاة العاملين اتصف بالتواضع والخوف من الله، والزهد في الدنيا والقناعة باليسير، والنصح للعباد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحسن الخلق والبعد عن الطمع والنفاق والخداع.

٥- إن مظاهر عظمة هذا الداعي جرأته في قول الحق وجهاده في سبيل الله وعلمه الوافر، وقوة إيمانه. والحمد لله رب العالمين.

* * * *